النزعة الاستهلاكية الرمزية وأثرها على فلسفة ما بعد الحداثة لجان بودريار.

Symbolic consumerism and its impact on postmodern philosophy Jean Baudrillard.

سعو نبيل

مركز البحث في اللغة والثقافة الأمازيغية، –بجاية–

(الجزائر)

nabileprof@gmail.com

تاريخ الاستلام:2022/01/20 القبول:2022/04/20 تاريخ النشر:2022/05/13

ملخص:

كشف جان بودريار في الحقبة المعاصرة عن كوجيتو جديد:" أنا استهلك إذن أنا موجود" تعدى الجانب المنهجي المعرفي الذي أتى به رنيه ديكارت، ومن سمات هذا الكوجيتو أنه يتضمن إشكالا مهما يتمحور حول النقلة النوعية التي واكبت الفلسفة المعاصرة التي أصبحت فلسفة للفعل، تهتم باستقصاء الواقع من أجل معرفة تحولاته الجذرية التي واكبت الثورة العلمية، بعدما كانت اهتمامات المعرفة سابقا منصبة فقط على الجانب النظري المعرفي. أما عن أهمية موضوع الاستهلاك فيمكن في جدته، وفي كونه أصبح نمطا وجوديا اليوم. أما المنهجية التي اعتمدنا عليها تتمثل في المنهج التحليلي من أجل تحليل الواقع من خلال أفكار "بودريار" السوسيوفلسفية، ومن ثمة المنهج التركيبي لتحديد نتائج البحث، بينما الأدوات التي اعتمدنا عليها تتمثل في: المصادر، والمراجع، والقواميس المتخصصة، وفيما يخص النتائج التي نصبو إليها من خلال هذا البحث هي: تقديم نظرة شاملة حول موضوع الاستهلاك وتحولاته، وإبراز تغيّر الفلسفة المعاصرة، وتوجهها نحو الاحتكاك بالعلوم الأخرى من أجل تحقيق ما يعرف بتكامل العلوم.

الكلمات المفتاحية: : استهلاك، إشكال، استقصاء، تحولات، اهتماماتها.

Abstract

Jean Baudrillard, revealed a new cogito: “I consume, therefore I am.” He went beyond the aspect brought by Rene Descartes, this cogito includes an important problem centered on paradigm shift that philosophy, become philosophy of action, in order to know radical transformations that accompanied the scientific revolution, after the interests of knowledge were previously focused only on the theoretical side. As for the importance of consumption, it found in its grandmother, and the fact that has become existential pattern today. for methodology that relied on, it is the analytical approach for analyze reality and sociophilosophical ideas, and synthetic approach to determine the results of research, while the tools relied are: sources, references, specialized dictionaries, results we aspire to Through, they are: providing a comprehensive view issue, consumption and its transformations, and highlighting the change, with other sciences in order to achieve what is known as the integration of sciences.

Keywords: Consumption, problems, investigation, transformations, interests.

*المؤلف المرسل

المقدمة:

لقد فقدت الإنسانية حسب "جان بودريار" (Jean Baudrillard) في ظل النظام الرأسمالي المعاصر علاقتها الفطرية لتتحول تدريجيا لمجرد علاقات رمزية في مجتمعنا المعاصر، وهذا ما جعل إعادة الحقن المنهجي للعلاقة واجبا وخصوصا في ظل العصر الاصطناعي الذي جعل من الإنسان المعاصر ينشد الصنمية تجاه مستلزماته الاقتصادية. كما أن سلوك الفرد تجاه السوق أصبح مصبوغا بشكل عال من التطبيع والتكييف مع العلاقات والمواقف الاجتماعية عموما تارة، ومع حاجات المنتج وأهداف البنية التقنية تارة أخرى، و كل هذا من دون شك أنه ساهم بقسط كبير في خلق نظام جديد باتت أهميته متنامية بنمو النظام الصناعي، ومن هنا تتضح فكرة أن الحاجات(الأشياء، المواضيع) ليست ثمرة إنتاج، بل هي نظام يتوافق ويتماشى مع نظام الإنتاج، والأهداف الاقتصادية المسطرة، وهذا يعني بصيغة "بودريار" أننا قد ولجنا عصر الاستنساخ (الاصطناع) في شقه السلبي، أين أصبحت فيه: العدمية، والردع، والعنف، والوهم من أنجع الآليات الموظفة من قبل الأنظمة الاقتصادية والسياسية لردع وقمع الشعب.

وحلت ما بعد الحداثة التي ستختفي فيها الذات الإنسانية المستقلة الواعية، كما أن الواقع سيصبح هو الآخر غير موجود، وحتى إن وُجد ستصعب علينا مهمة الوصول إليه، وستختفي المعيارية في تعددها نتيجة انسحابها من المركز ما يعني استحالة المحاكاة ليحل الوهم الذي أمس حاضرا بكل أشكاله، حتى أنه قد تفشى بصورة مُذهلة وذلك لاتحاده مع جرثومة لقاحه التي ساعدته على التطفل، ومن هذا اتخذا التفكير صراع حول العلاقات، ومدى الأسبقية الوجودية على الطبيعة والإنسان، وما يوضح لنا هذه العملية بشكل مفصل اختزال(الطبيعة و الإنسان) في النظام الرمزي الذي تعدى أبعادهما، وأخضعهم للنمطية، وجرهم نحو منطق الاستهلاك الرمزي.

وبناء على ما سبق فالإشكالية التي تعالجها هذه الدراسة تتمحور حول مصير الإنسان الغربي المعاصر في ظل هذه الأزمة، وفي ظل طغيان ثقافة الاستهلاك وتحولها لنمط وجودي يحدد أهداف ورغبات وآمال الإنسان الفائق ، ما أدى إلى ظهور الليونة والتعدد، بدل الصلابة والوحدة التي كانت سائدة سابقا ، وعليه فالإشكال الذي وجب علينا طرحه في هذا السياق على لسان جان بودريار: كيف ساهم الاستهلاك الرمزي في إحداث نقلة علمية نحو الاختزال الاقتصادي للإنسان وتنميطه؟ وما هي الحلول التي اقترحها "بودريار" لتجاوز هذه الأزمة التي وقعت فيها فلسفة ما بعد الحداثة.؟

وللإجابة عن الإشكال المطروح قسمنا بحثنا هذا لعناوين فرعية وهي كالأتي:

1- مفهوم الاستهلاك في المجتمعات المعاصر.
2- السوق وفرط السلعة.

3- الاستهلاك والاقتصاد الرمزي.

4- أخلقة اقتصاد السوق المعاصر.

من هنا فإن أهمية هذا الموضوع تتبدى من كونه حديث عن أزمنة ما بعد الحداثة ، وارتباطها بمنظومة الاستهلاك، التي ولدت لنا إنسانا ذو بعد واحد وهو البعد الاستهلاكي، الذي يمجد الرغبات، ويعيش وفقا لمبدأ اللذة والرغبة لا وفقا لمبدأ الحاجة، وهو ما جعله يتخبط في أزمات متعددة، وينساق خلف نرجسيته وشهواته، مما ولد شرخا هوياتيا لديه، وجعله يعيش الخيبة وما يعرف بالسعادة المتناقضة.

هذا وأن مجمل الدوافع التي أخذت بنا إلى الموضوع يمكن إجمالها في مايلي: البحث في موضوع الاستهلاك لكونه محورا أساسيا في الثقافة الراهنة، محاولة البحث عن مخرج للأزمات التي يتخبط فيها الإنسان المعاصر، عبر أخلقة الاقتصاد المعاصر، وبالتالي ترشيده، وضبط المستهلك المعاصر وفقا لمبدأ الحاجة والضرورة.

اعتمدنا في هذه الدراسة على المناهج التالية: المنهج التحليلي والتركيبي، أما المنهج التحليلي فقد اعتمدنا عليه لتفكيك أفكار بودريار، والكشف عن العُدَّة المفاهيمية التي تُميّز طرحه السوسيوفلسفي ، والتي عمل من خلالها على مُقاربة موضوع الاستهلاك في زمن ما بعد الحداثة ، مُتوسّلا في ذلك بآليات تحليل مختلفة عملنا على إبرازها من خلال تحليلنا لأفكاره وقراءتنا لكتاباته المتنوعة التي مسّت موضوعات جزئية متعددة. ولقد عملنا على تحليل رؤيته لأغلب الجزئيات التي انطلق في دراستها من الواقع وانتهى إلى تنظيرها فلسفيا في طرح مُغاير لما دأبت عليه الفلسفات التقليدية، كما عملنا على ضبط المفاهيم التي تُميز فكره بعد تحليلنا لأفكاره، ومن ثمة تحليلنا ومعالجتنا لموضوع الاستهلاك عبر جزئيات الواقع المتعددة.

أما المنهج التركيبي فقد كان من أجل التركيب بين التغييرات التي ميّزت عصر ما بعد الحداثة على مختلف الأصعدة واستعراضنا لبنية الاستهلاك الرمزي، وبروز الإنسان المستهلك الفائق، والإعلاء من قيمة الجسد والحواس في الفترة المعاصرة.

1- مفهوم الاستهلاك في المُجتمعات المُعاصر:

يزخر عالمنا المعاصر حسب "جان بودريار " بتنوع الإنتاج والتفاني فيه، وهذا ما فتح المجال للفرد المعاصر لإبداء خياراته تجاه منتجات الاستهلاك، ونوعية الخدمات، ومن دون شك أن هذه المرحلة يمكن أن ندرجها ضمن المراحل الحساسة التي عرف فيها الجنس البشري تحولا تجاه ايكولوجيا الإنسانية (Baudrillard, 1970).

إن فعل الشراء في المجتمع المعاصر لم تعد تتحكم فيه الآليات القديمة، بل هو فعل الخيار، و تحديد الأفضلية والُمشتري وظيفته محصورة في تحسين لعبة اختيار ورفض الاستخدام التقليدي للأشياء. ففي لعبة الاستهلاك يتوسط الجسد بين حلقة الإنتاج واستهلاك ذاته، ذلك لكونه رأس مال منضوي تحت صنميه السلع، ومن هنا نجد بأن الجسد المعاصر يحاول دائما أن يتحرر من عبودية النظام الرأسمالي الذي يصر دائما على سجنه في حلقة الاستهلاك والمتعة، فقد أُستغرق الجسد الناشط وسُجِن في النظام الرأسمالي المعاصر لما تم إقرانه في علاقة بالقيمة

التبادلية للأشياء، وانطلاقا من هذا فقد كسب الوجود الفردي قيمة ووظيفة باتت تتحكم فيها فكرة الرغبة والمتعة. (Baudrillard, société de consommation : ses mythes , ses structures, 1970) .

2–السوق وفرط السلعة:

يربط 'بودريار " مدى ازدهار المجتمعات الغنية بارتباطها بالتبذير ، حيث يصف الحضارة المعاصرة بحضارة "سلة النفايات"، ويشير إلى إمكانية قيام نوع من السوسيولوجيا التي تدعى ب" سلة المهملات"، التي تحمل منطقا جديدا مختزلا في مقولة:" قل لي ماذا ترمي أقول لك من أنت !، وهذا هو حال المجتمعات المعاصرة الذي يُعتبر فيها التبذير على الدوام بمثابة نوع من الجنون، من خلال وظيفة الغريزة التي تحرق فيها احتياطات الإنسان، وتتعرض شروط بقائه للخطر من خلال ممارسة اللاعقلانية في الاستهلاك، و الإفراط فيه. (بودريار، 1995م)

فمن سمات المجتمعات الاستهلاكية، دائما أن منتُجاتها في تنافس حاد ومستمر، حيث في كل مرة تحل منتجات جديدة محل السلف، وهذا ما سيساهم في خلق الوفرة من خلال سعي الاقتصاد لتلبية حاجات ومتطلبات الفرد المعاصر، فإذا أخذنا مثال عن استخدام الأثاث في العصر القديم نجده ذو استعمال واحد وثابت، ولكن اليوم تغير استخدام الحاجات وتعددت تسميات الأدوات المنزلية، ففي وقت مضى اكتف الفرد باستخدام لفظ الكرسي، أما الآن فقد أصبح يوظف عدة ألفاظ كالأريكة ... وكل هذا لتحقيق، و إرضاء متعه المختلفة (Baudrillard j. , 1986).

لقد واكب موجة تحديث النشاط الاقتصادي تحريره من الأعباء الأخلاقية، والغائية، سوءا كانت إنسانية أو دينية ليجد الاقتصاد نفسه يُعبر عن مرجعية ذاته، وذلك ما سيجعله يسطو على مجالات الحياة نتيجة إخضاع الأشياء لآليات السوق (ألمسيري، 2006م) لهذا كانت ولا تزال المجتمعات كلها تُبذر، وتُبدد، و تنفق، وتستهلك أكثر من الضروري الدقيق، وذلك يرجع لسبب بسيط، ألا وهو أن الفرد والمجتمع يشعران بالوجود و بالحياة بالاستهلاك و بالإفراط في الاستهلاك بالفائض، أو الزائد إلى حد التلف، حد التحطيم البحت، وربما هذا النمط نجده متجسدا في احتفال الوهب (Potlatch)، الذي يقوم على تحطيم الخيرات مثل: الأواني، و النحاسيات التي يحرقونها أو يرمونها في البحر لتعزيز رتبتهم، وتوكيد قيمتهم، وفي هذا السياق يرسم تعريف الاستهلاك بوصفه إتلافا أو تبذيرا ، فالمجتمع الاستهلاكي أصبح اليوم مجتمعا لتعلم الاستهلاك، ومجتمعا للترويض الاجتماعي على الاستهلاك، أي أصبح زي وحُلة جديدة خاصة بالتنشئة الاجتماعية من حيث تتماشي القوى الإنتاجية الجديدة، بالمتعة والاستمتاع، والأدهى من ذلك أنه شرط الإنتاج لم يُعد شرطا غائيا، بل تحول إلى إكراه مؤسساتي (بودريار، المجتمع الاستهلاكي : دراسة في أساطير النظام الاستهلاكي وتراكيبه، 1995م) ناتج من المبالغة في تقديس العقل الذي أنتج ووسع بالاستهلاك حتى أصبح في عصرنا مُنتشرا بشكل واسع، وأخذ مكانا صامتا، ويكاد لا يُرى لأنه لا يتميز بمنتجات خاصة، لكن يتسم باستخدام أساليب مختلفة يفرضها دائما نظاما اقتصاديا مسيطرا (سارتر،

2011م). حيث يجعل ذلك النظام حسب "هاربت ماركيوز" الضروريات الاجتماعية بدورها تتحدد من طرف السلطة التي تستخدمها كأداة ضغط، وورقة مهمة للسيطرة على بقية أفراد المجتمع(Marcuse, 1970)

و لغرض السيطرة والتحكم في الفرد تطلق الرأسمالية دائما قوى الاستهلاك المشخصة في غرائز الإنسان الجنسية من عقالها، القائم أساسا على الاستماع لصوت اللذة، التي تتطلب باستمرار الإشباع من خلال الاستجابة للنزوات والرغبات، وكل هذا جعل من الإنسان المعاصر يعيش من أجل إمتاع جسده مهما كلفه الأمر على حساب أفعاله وقراراته (ألمسيري، 1979) وعلى إثر هذا فلم نعد اليوم نتصور وجود مجتمع منظم حول مؤسسات سياسية كما يذهب لذلك "ألان تورين" (Alain tourin) بل أصبحنا دائما منضوين تحت مراكز الإدارة الاقتصادية، والسياسية و العسكرية، ومن جهة أخرى نجد أنفسنا مرتبطين بعالم حاجاتنا الخاصة وهنا نحصر موقعنا بين النظام والفاعل ولكن من جهة أخرى نجد أن الإشكال المطروح هو أن الخيط الرابط بينهما بات اليوم غائبا تماما، ولهذا لم نعُد نتصور انتمائنا إلى مجتمع في طبقاته أو إلى أمة... باتت الآن السوق العالمية هي من تُحدد حياتنا بما فيها من معايير وقيم اجتماعية وثقافية، كما حلت أيضا السلوكات الفردية محل المشاركة الاجتماعية (تورين، 1998)، ولعل هذه الصورة الأولى التي يتسم بها المجتمع الرأسمالي أنه لا يُختزل ذاته في فكرة مجتمع الكسب فقط، بل نجده وزحف ويمتد قُدما ليُمثل القطيعة بين الاقتصاد والعقائد الثقافية أو أشكال التنظيم الاجتماعي، وهذا طبعا نلمحه في الفصل التام بين المصلحة الفردية والسوق الذي يُعرف على أنه سباحة، قتال، وصراع حتى الموت (تورين، نقد الحداثة: الحداثة المظفرة، 1998 م)، وهنا تتوقف الحياة عند "برجسون" (Bergson) لما ارتفع العقل بصنع آلاته إلى درجة التعقيد والكمال، وهذا ما لم تستطيع الطبيعة أن تتنبأ به تجاه هذه الآلات التي تسكب من مُدخرات الطاقة ما توهمنا بتضاؤل قوى أجسامنا أمامها حتى لا تكاد تساوي أمامها شيئا، وهذا ما يجعل رحلتها تبدو على وشك التوقف في كل مرة أمام الآلة (برغسون، 1971).

3- الاستهلاك والاقتصاد الرمزي:

إذا كان كوجيتو الحداثة عند "ديكارت" يقول بأن جميع الناس متساوون أمام الفكر، فهاهو" بودريار" قد صاغ هو الأخر كوجيتو جديد لما بعد الحداثة يحجج فيه بأن جميع الناس متساوون أمام الحاجة، وأمام مبدأ الإشباع ومتساوون أمام القيمة الاستعمالية للأغراض، والخيرات، و الأملاك، لهذا ترتكز اللعبة السياسية للمجتمع الاستهلاكي في تخطي تناقضاته بزيادة حجم الخيرات، و توفير المساواة للجميع في تحقيق الرفاهة الشاملة أمامها (بودريار، المجتمع الاستهلاكي: دراسة في أساطير النظام الاستهلاكي و تراكيبه، 1995م).

أمس اليوم الاستهلاك غاية في حد ذاته، فالإنسان المعاصر مفتون بإمكانية شراء المزيد من الأشياء الجديدة والأفضل، إذ أصبح فعل الشراء والاستهلاك هدفا لا عقلانيا، ولا يتضمن غاية في ذاته، فشراء مثلا أخر الموديلات: (السيارات، والملابس، و الآلات) بات هدف الإنسان الرئيسي، بينما أخذت اللذة مقاما ثانويا (فرح، 2014) وأن الموضة باتت هي الأخرى في هذا العصر تستوجب على كل فرد بأن يكون مطلعا، وأن يتكيف سنويا، وشهريا وفصليا من حيث ملابسه، و أغراضه، وسيارته، و إذا لم يستجب فلن يكون مواطنا حقيقيا في هذا المجتمع الجديد

؛ فالمجتمع الاستهلاكي نلمس فيه مؤخرا أنه لم يُعد ينتج أسطورة، بل تحول هو الآخر إلى أسطورة في حد ذاته وحلت فيه الوفرة البحتة محل الشيطان الذي كان يجلب الذهب والثروة، وحلت عقدة الوفرة محل الصفقة، كما أن الوجه الشيطاني جدا للشيطان أوهم بوجود الوفرة في حين أنها غير موجودة قط، ولكنها باتت توهم أنها موجودة حتى تكون أسطورة فعالة، فالمجتمع الاستهلاكي في وظيفته الجديدة أصبح بحاجة ماسة لتحطيم أغراضه، من أجل تخطي الذات من الداخل (بودريار، المجتمع الاستهلاكي :دراسة في أساطير النظام الاستهلاكي و تراكيبه، 1995م). وهذا ما يفسره "هربرت ماركيوز (Herbert Marcuse) (1898-1979)بضرورة إحداث التوازن، إذ "العدوان" فينا يهدف دائما إلى بعث روح الموت، و لكن للانفلات منه يجب علينا أن نصغي إلى "الليبيدو" الذي يدفعنا لتمجيد الحياة و لمتع باختلافها (ماركيوز، 2011 م) وهذا هو السلاح الذي يجب أن يتحلى النظام به ليجرد أي محاولة مُستهدفة لمناوأته ومعارضته، ويرى ' هربرت ماركيوز' أن قوة النظام تكمن في سعيه لتحقيق القدر المستطاع من احتياجات الناس وتلبيتها ، لأنه في هذه الآونة يكون قد رفع من مستوى حياتهم ، لكن بالمقابل الشيء يجب أن نحتاط منه، ونتنبه له هو أن الحاجات التي يزودنا بها المجتمع المتقدم هي دائما حاجات مصطنعة، وذلك ما يجعلها تفرض فرضا أسلوبها المعيشي في اغلب الأحيان بالتأمر مع وسائل الإعلام و الاتصال (ماركيوز، الإنسان ذو البعد الواحد، 1988 م).

وفي هذا السياق يذهب "جيل ليبوفيتسكي Gilles lipovetsky(1929–) لتفسير علاقة الاستهلاك بالعصر المعاصر الفائق حيث أنه دمج الحسية، والأمور الصحية، والمتعة، والقلق، والشاشة، و ريادة حاسة اللمس في عالمنا الافتراضي، وحفز الشغف والرفاهية، أين أصبح الفرد المعاصر يميل إلى الأسفار، وحب الموسيقى، و يتلذذ بالأطباق، وعناوين المطاعم الجديدة، وأنواع النبيذ الفاخر... (ليبوفيتسكي، 2012 م).

فالاستهلاك حاليا أخذ على عاتقه ترقب انفلات اللذة الآنية، ووجوب الإشباع، والتبديد، وباجتماع هذان العاملان ستغيب الحدود في الأسواق، و ينعدم المركز، و في هذا الظرف سينتقل النظام الاقتصادي من مُراعاة المنفعة إلى مراعاة اللذة، وسيصبح الأهم في الاستهلاك (لا الإنتاج)، بل التنافس بين المستهلكين (المسيري، 2006). فالماركة اليوم هي دائما في مواجهة الدعاية الإعلانية، كما أن الشركة المنتجة باتت تلعب دورا أساسيا إذ تفرض علينا نوعا من النظر إليها كتمسك، وتكبلنا في فخامتها،عن طريق غوايتها وإغراءاتها، لمزاوجتها بين الجمال والفعالية، وهما الشرطان الأساسيان لقيام عامل السعادة، التي ليس عصرنا الحالي إلا علامات من تدفق هذه السعادة، و الرفاهية، والغبطة (بودريار، المجتمع الاستهلاكي: دراسة في أساطير النظام الاستهلاكي و تراكيبه 1995). فالأمر يتعلق فعلا بعالم اللمس، لا بعالم النظر و الخطابة، و الناس ينجرفون مباشرة في صيرورة لم تعد من نوع التصور، ولا المسافة، ولا التفكير بل تأخذ صيغتها الآتية: أن تتلاعب /أن تكون مُتلاعبا، أن تُهوي/ أن تُهوى، أن تدير/أن تُدار ، وهذا كله أمر ذو صلة بعالم الهلع أين يكون المصطنع لا يُشكل نسخا باعتبارها مجرد إعادة و تكرار، بل ينشئها من خلال التصغير الجنيني (بودريار، المصطنع و الاصطناع، 2008م).

إن حاجاتنا الأساسية في عصرنا هذا مرتبطة بشكل هستيري بنمط الرموز المتبادلة بين السلع، وليس بما تؤديه تلك السلع من خدمات أو ما تمنحه من فوائد، لنلاحظ بعض الشيء في مجتمعنا المعاصر الذي نجد فيه الكبت قد اختفى نتيجة تحقيق الإشباع، و الرفاهية، ولكن سرعان ما تنبثق أنماط أخرى من الكبت ترغم على الفرد سدادها في شكل عود أبدي (جيفتك، 2005م)، ولتحرير رغبات المستهلكين من: النساء، والشباب، عمد النظام الرأسمالي للاهتمام بتحرير "الهو" و إدماجه في "الأنا الأعلى" في عمليات الإنتاج، ليصبح تحرير "الهو" منتشرا بقوة في الأوساط الاجتماعية للدول المتقدمة وبشكل سريع، ومن هنا يضع "جان بودريار" تفسيرا جديدا يقول فيه: بأن الرأسمال المعاصر لم يعد يعتني بالعبيد كقوة إنتاجية، وإنما أصبح همه منصبا على الاهتمام بالفرد كقوة استهلاكية (Jean Baudrillard, 1972) ، ونجد "نيتشه" (Nietzsche) يرجع هذا المنعرج والتحول الاقتصادي الموجه نحو الاستهلاك الفردي كناتج لقيمة الحياة التي أصبح همها منصبا نحو النمو والرغبة في الاقتناء بالزيادة ، كما أنهامن سماتها أنها تنشد دائما التغيير والصيرورة ، ومدام هذه الحياة تعبير عن النمو والرغبة بتجدد ودون انقطاع فهذا ما سيجعلها في حاجة ماسة إلى أشياء أخرى خارجها لتتواصل وتتخاطب معها (الحليم، 2010 م).

ومن أجل بقاء هذا النظام في شكله الاستهلاكي عمد هذا النظام على حد تعبير "زيجمونت بومان" Zygmunt Bauman (1925-2017) لإيهام الإنسان بأن تحقيق السعادة يكون عبر الإشباع، والتفرغ للتبذير، والإفراط، وأن هذه هي سبل الحياة المعاصرة (بومان، 2016) و من هنا فنحن كلنا اليوم على حد قول "بومان" تحت ضغط الاستهلاك أين أصبح وجودنا مرتبط بمدى استهلاكنا أكثر فأكثر،أو أن ننهج بأنفسنا لنصير سلعا في أسواق الاستهلاك والعمل. (بومان ز.، 2016 م)

وهذا كله يحدث نتيجة احتوائنا اليوم من طرف الآلات التي جعلت منا مجرد أدوات تتبادل معها عن طريق التبادل الرمزي في حدود النسق والسلطة التي وضعها لنا الاصطناع المعاصر ،حتى أصبحت مجالاتنا الحياتية الأخرى هي أيضا خاضعة لهذا الضغط المفروض عليها من قبل التصنيع وتصاعد الروح التقنية (Simondon، 1989)، التي تعتبر فعلا " مبدأ للشر" من حيث أنها تُسعفنا في وجودنا، وتسعى لإيقاعنا في فخ القمع عن طريق نظامها الذي أصبحنا نتلذذ به دائما، ويقوم بإلهائنا عن طريق الاستراتيجيات القاتلة، التي باتت تنتج استراتيجيات عادية (Baudrillard J.، les stratégies Fatales، 1983). فالرأسمالية المعاصرة في نسقها الصناعي نجدها اعتمدت حتى على توظيف الخيال لاستنطاقه في الحاجات الضرورية للإنسان، وهذا ما جعل فعل الاقتناء والبيع يعتمد على عامل الخيال كأثر فعال (Jean Gray، 1975).

4-أخلقة اقتصاد السوق المعاصر:

يطرح أندري كونت سبونفيل (André Comte Sponville) (1952-) في معجمه الفلسفي سؤالا مفاده: هل النظام الرأسمالي المعاصر ذو قيمة أخلاقية؟ ويجيب بالنفي، ذلك أن القول بأخلاقيته يقتضي منا التعامل معه كذات، لكنه ليس كذلك. إذن يقع النظام الرأسمالي خارج النطاق الأخلاقي، أي في اللاأخلاق "amoral"

فهو يتبع دائما مصالح وغايات العائلات أو الأشخاص، ولهذا تشكل الفردانية، والمادية روح هذا العصر، وفي المقابل تراجعت القيم الأخلاقية والاجتماعية (Sponville، 2001)

وتزامن ظهور الآلات الصناعية عند "بودريار" مع عصر هيمنة آلات الوعي العقلاني والمرجعية التاريخية، والآن يتزامن ظهور الآلات الصدفوية مع النظام الذي يعتمد أساسا على اللامرجعية، واللاوعي، بل حتى اللاوعي ذاته أصبح خاضعا للتحول، وفقد مرجعياته، وثوابته ليصبح تظليلا استراتيجيا، كما أن العلم مؤخرا بدأ يتحول أكثر فأكثر نحو اللايقين، والفوضى، والارتياب. إضافة للاقتصاد، والذي بدأ يخضع أكثر فأكثر لبنية اللاتوقع الشامل. كما أن انفجار تقنيات الاتصال بدأ يفسر مزيدا من الإبهام في عالم السلعة التي تُثير دائما في حركتها حالة من التباعد والتفرقة بين البشر (بودريار، الفكر الجذري : أطروحة موت الواقع، 2006). ويبرر "بودريار " ذلك بالقول بأنه يملك انطباعا باطنيا بعودة شعلة المواضيع التقنية، وبوتيرة متصاعدة، نظرا لوجود لعبة متبادلة بيننا وبين التقنية وربما أيضا ليس من الخطأ أن نفكر بأنه حان الوقت الآن لإدراك انتقام المواضيع والأشياء منا، وكل هذا ينبؤ بأن الغرب اليوم يعيش حياة يسودها الملل واليأس (Baudrillard j.، D'un Fragment l'avec entrtients -autre François Lyvonnet، 2001).

وإن هذا ما يميز المجتمع المعاصر أي مجتمع الوفرة (société de l'abondance) الذي استطاع أن يُغير طبيعة الجنس البشري، إذ لم نُعد مثلا اليوم نحس بمن يُحيطون بنا بصفتهم بشر، بل أصبحوا بالنسبة لنا مجرد أدوات وأشياء، وهذا نابع من سياسة الاحتواء الاستهلاكي الجديدة (جيفتك ك.، 2005) التي ميّزت القرن 20 م، حيث تعمل على خلق حاجات زائفة عند الأفراد والمجتمعات المعاصرة، وهو ما يؤدي لإفراغ حياتنا من هدفها المنشود ويتم تحويل اهتمامنا نحو المادة والأشياء الأكثر زيفا كالاهتمام بالأزياء، والموضة...وغيرها. ومما لا ريب فيه أن هذا التحول لم يكن عفويا بل كان مخططا له من طرف النظام الليبرالي، الذي أراد تجهيل الناس، وتحويلهم لمجرد فضوليين وغرباء تتمثل وظيفتهم الجديدة في المشاهدة فقط، لا في المشاركة (تشومسكي، 2004 م)؛ وذلك خدمة لسياسة ترويج السلعة، والتي باتت في وقتنا هذا جوهر السوق والمحور الذي يدور حوله الفرد والمجتمع. ولقد أظهر الأفراد قوة ارتباطهم بالسوق الذي يلبي حاجاتهم، ومتطلباتهم اليومية، وبعبارة أخرى تحولت السيادة في يومنا تجاه الأشياء واتجهت الأعين صوب منطق البيع والشراء، ومن هنا انحرف السوق نحو التشيؤ والتوثين (المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية ، 2006). وهذا يدل أن مُجتمعاتنا اليوم أصبحت خاضعة في بنيتها لما يُسمى بالتطور التقني الذي حتم علينا ضرورة الاستجابة، والخضوع لمنطق الأشياء(Baudrillard j. , le système des objets, 1968) ، أي أنها بتعبير "ماركيوز" قد اختزلت في الطابع الاستهلاكي في مختلف المجالات الصناعية والثقافية، والذي يخلق فينا رغبات تقتضي المداومة على إشباعها (Marcuse, Eros et Civilisation contribution a Freud, 1963) ، فالتقنية المعاصرة، وعصر الاصطناع المعاصر قد تمكنا من وضع الفرد في مأزق الخلق اللامتناهي للرغبات التي يصطنعها في كل مرة حتى يوقعه في فخ الاستهلاك (Bellefleur, 2012)

ولقد مس الانحلال الإنسان وأوقعه كما عبر عن ذلك"نيتشه"، على اعتبار أنه إنسان الحضارات المكتهلة، والأنوار المنعكسة، وهو ما ينبؤ بضعفه، كلما استمرفي إتباع رغباته التي تخلق فيه دائما صراعا مع ذاته، قصد الحصول على السعادة التي تتيح له التأقلم مع أوضاعه الجديدة (نيتشه، 2003م) أما "بودريار" فيرى أن حياة الإنسان المعاصر تبدو ثمينة ليس لكونها ذات قيمة، بل عندما تتخذ شكلا مفرطا، وغير أخلاقي، ومن هذا المنطلق فهي غير قابلة للمُبادلة بأية حياة أخرى أو قيمة أخرى أيا كان نوعها (بودريار، التبادل المستحيل). ولهذا فحتى المجتمع المفتوح (Société ouverte) الذي يراهن عليه "زيجمونت بومان" لن يكون مُجديا، بحكم التبعية، والعجز والبؤس الذي تعاني منه شرائح المجتمع على اختلافها، والخطورة العظمى تتمثل في انهيار الروابط الإنسانية في ظل العولمة التي تشبه عملية طفيلية تتغذى من دماء الأمم– الدول، ومن رعياها. (بومان ز.، الأزمنة السائلة: العيش في زمن اللا يقين 2017 م)

إن مجتمعاتنا الحالية تغزوها سلع سريعة الاستهلاك على غرار: المخدرات، والأفلام الإباحية، والسلع التافهة، وهي تستغرق وقتا وإمكانيات كبرى لإنتاجها، وهو ما ينعكس سلبا على المجتمع بسبب الاستخدام المكثف للوسائل التكنولوجية، والاستهلاك السريع يوميا، وهو ما سيزيد من دون شك من اغتراب الإنسان عن واقعه، ويساهم في نشر العنف بمختلف أشكاله في مختلف الأوساط (المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، 2006).

ولقد لاحظ "هربرت ماركيوز: أن القمع الجنسي بدأ يتصاعد في المجتمعات الصناعية بالتزامن مع التكنولوجيا حيث أن الصناعة المتطورة باتت تصنع الجنس، وتلغي وجوده الطبيعي، لتحل محله الآلة التي تجعله في ارتباط وثيق بها دائما (طاهر، 2005 م). كما أن دلالة الموت كما يذهب "بول فاليري" (PAULE VALERY) قد قطعت في الثقافة الغربية أشواطا، وأصبحت بعيدة عن الدلالة الكلاسيكية القديمة، حيث لم تعد تعني موت شخص، أو موت أولئك الذين يعتقدون أنهم مهمون، بل أصبح افتراضيا. فقد استسلمنا في النهاية ليصبح كل شيء افتراضيا (فاليري، 2013 م).

لذا فأزمة عصرنا الراهن بتعبير "ميشال فوكو" (Michel Foucault) تتمثل في عجز الفكر المعاصر عن اقتراح أخلاق تناسب روح العصر، بل أنه أصبح من الصعب التفكير في نمط أخلاقي، لأن حركة الفكر أصبحت تتجه بالأساس نحو الآخر، ومن جهة أخرى فالتفكير بدوره لم يعد ممكنا إلا في الفراغ الذي عقب اختفاء الإنسان (Foucault, 1966). فسبب اختفاء أخلاق الخير والفضيلة في المجتمعات المعاصرة يرجع للتضافر بين التقدم العلمي وتفكيك الإنسان المعاصر، فنتج عن ذلك إلغاء الذات، وتكريس العدمية كمبدأ استشرافي (بوحناش، 2013 م).

ولعل من بين مسوغات هذا التغيّر في النمط الفكري أنه تتويج للنقلة النوعية التي حدثت في مهمة الفلسفة معاصرا، حيث لم تعد منصبة على البحث من أجل إيجاد حلول للمسائل الميتافيزيقية المطروحة منذ أفلاطون، بل أصبحت مُهتمة بالنزعة التفكيكية حيث تشتغل على هدم وتقويض الأوهام (الداوي، 2004 م).

ومن هنا يمكن القول أننا بصدد تحولات كبيرة، فالهوية مستقبلا لن يحددها الانتماء الاجتماعي، ولن يكون عماد التذاوت السلطة بمستوياتها المختلفة (العائلة، والمدرسة، والدولة)، بل وسائل الإعلام على اختلافها هي من تُحدد مجالات فكرنا، وحقول انتمائنا، عن طريق فتحها لمجال أوسع تتخلله إمكانية المشافهة، والتواصل اللامحدود (التريكي، 2009 م). فقد ولجنا عصر الاستهلاك (l'ère de Consommation) من بابه الواسع، أين أصبح الاستهلاك غاية في ذاته أي (الاستهلاك من أجل الاستهلاك)، ويشمل شتى أنواع الوسائل بما في ذلك الإعلام وآلات الحرب والمال...وغيرها. فغاية الاستهلاك تحويل الآخر المسِتَهْلِك لشيء قابل للاستعمال والاستغلال (خليل، 1996 م) . وهو ما يطرح مُشكل الهُوية، فقد أصبحنا نعاني حاليا من انهيار على مستوى الحياة الأخلاقية نتيجة لتجاوز الفرد لمنطق الخير والشر كمعيارين للحكم. ومن هنا ننتهي إلى أن الأخلاق تعاني من أزمة خصوصا وأننا في عصر نهاية الإنسان، وهو ما يعني استحالة التنظير لها، بحكم نهاية الفاعل – الإنسان- (بوحناش، الأخلاق والحداثة، 2013)

وفي هذا السياق يرى "ادغارد موران" (Edgard Morin) أن ذلك راجع لسرعة وتيرة تطور العلوم، ولعجز الأخلاق عن مُسايرة الوضع الجديد الذي أل له العقل، وهو ما أوقعنا في تراجيديا حقيقية تتمثل في "غياب الأخلاق"، ومن أجل استعادتها يجب علينا حسبه إحياء روح المسؤولية، والتضامن مع الآخر الذي يشاركنا الوجود، ونتقاسم العيش معه (Ramadan, 2014). وذلك لتجاوز الوضع الراهن أين أصبحت ثقافة الإنسان تُقاس بمدى استهلاكه فتحول لكائن يفترس الآخرين، وهم بدورهم يفترسونه (خليل، علم الاجتماع وفلسفة الخيال). أما ميشيل أونفراي (Michel Onfray) فيرجع الانحراف الأخلاقي اليوم إلى السعي لتحصيل اللذة حتى سمي عصرنا بعصر اللذة، مما ولد أخلاق عدم المبالاة، أي اللاإلتزام (اللا الواجب)(non Devoir) ، واللا عقاب (non punition) ومن سماتها أنها أخلاق لا تدعو للإجازة، ولا إلى المساواة، بل تؤمن إيمانا يقينيا بالاختلاف والتعدد (éthique de la diversité) (Onfray, 2011).

من هنا تظهر الدعوة لأخلاق حياتية جديدة نراهن عليها للتأسيس لمشروع حياة ايجابية، أين يتقاطع الجانب الأخلاقي مع الحياة اليومية وصيرورتها (Misarhi, 2011)

خاتمة:

على ضوء ما تقدم ننتهي إلى مايلي:

- إن المجتمع الاستهلاكي غارق في عبادة الوفرة، والوسائل المطبقة لهذه العبادة متعددة كالمراكز التجارية، والمتاجر الكبرى، وشوارع التسوق، وأكشاكها ما يبرز دليل الفائض، ونفي الندرة.

- يقدم جان بودريار هويات أفراده في المجتمع الاستهلاكي من حيث أنه نظام من العلامات.

-الاستهلاك يرتبط بالتمتع الفردي بموضوع ما، ويشكل حلقة تمجيد ما يسمى بالاحتياجات النفسية، والتي تختلف عن الاحتياجات الفسيولوجية، من حيث أنها تستند على ما يبدو على الدخل التقديري، وحرية الاختيار، وبالتالي يصبح التلاعب به تحت رحمة المجتمع الاستهلاكي، ويولد ما أصبح يعرف بالنرجسية.

–الاستهلاك أيضا هو عملية تحدث فيما وراء المرئي والواعي، في الرمزية واللاوعي، ففي المجتمع الاستهلاكي يتواصل الناس من خلال ما يختارون استهلاكه – يتبادلون الإشارات، وبالتالي يوزعون القيمة الموجودة في تلك العلامات.

– يتناول الاستهلاك بشكل أعمق البحث عن هُوية المستهلك الفردي الذي يعيد بناء هويته من خلال قوة الإشارات، في نطاق الاختلافات المضاعفة ؛ إنه شخصية تركيبية، فهو تركيبة خطية من العلامات التي يظهرها.

– إن الأماكن التجارية الكبرى، وشوارع التسوق نجحت في حجب دور النقود، عن طريق استبدال النقود النقدية بالبطاقات الذكية، مما جعل الاستهلاك معجزة، نظراً لأن العرض يتجاوز الطلب؛ فإن وفرة البضائع تعطي الإنسان فكرة أن له حقاً مشروعاً وفطرياً عليها. منذ ذلك الحين فصاعداً، أصبح الإنسان يحيط نفسه بأشياء لا نهاية لها ليصبح أكثر فاعلية.

– يعتمد المجتمع الاستهلاكي على الإنتاج الصناعي للاختلافات، ويُظهر جان بودريار بشكل أكثر دقة أنه يقدم الفروق الشخصية للفرد: أسلوب الحياة، والأيديولوجية وغيرها التي يمكنه من خلالها تكوين هويته وفقاً لنموذج تم اختياره صراحةً أو ضمنياً. من هذا المنظور؛ فإن الهوية والشخصية ليسا نتيجة الصدفة أو القدر، أو حتى بناء على أساس التاريخ (القومي، والعائلي، وما إلى ذلك) والخبرة الشخصية؛ على العكس من ذلك، فهي نتيجة اختيار واع أو غير واع، ويفترض أنها "حرة".

– يعتمد المجتمع الاستهلاكي على الإنتاج الصناعي للاختلافات، ويُظهر جان بودريار بشكل أكثر دقة أنه يقدم الفروق الشخصية للفرد: أسلوب الحياة، والأيديولوجية وغيرها التي يمكنه من خلالها تكوين هويته وفقاً لنموذج تم اختياره صراحةً أو ضمنياً. من هذا المنظور؛ فإن الهوية والشخصية ليسا نتيجة الصدفة أو القدر، أو حتى بناء على أساس التاريخ (القومي، والعائلي، وما إلى ذلك) والخبرة الشخصية؛ على العكس من ذلك، فهي نتيجة اختيار واع أو غير واع، ويفترض أنها "حرة" .

– الفرد هو ما يختاره من خلال ما يستهلكه، هذه الاختلافات المختارة، على عكس الاختلافات الحقيقية، لا تضع الأفراد ضد بعضهم البعض؛ لأنها تتوافق مع أنماط مصطنعة وضمنية. لذلك؛ فإن للتمييز بين الذوات هو بالتحديد أن تصبح تابعاً لنموذج ما، للتأهل بالرجوع إلى نموذج مجرد، إلى شخصية أزياء اندماجية، وبالتالي التخلي عن أي اختلاف حقيقي، من أي تفرد، والذي يمكن أن يحدث فقط في علاقة صراع ملموسة مع الآخرين، ومع العالم.

قائمة المصادر والمراجع:

أحمد عبد الحليم عطية،2010 م ، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، ط1،دار الفارابي، بيروت– لبنان.

ألان تورين، 1998م، نقد الحداثة: الحداثة المظفرة، ترجمة صياح الجهيم، ق1،منشورات وزارة الثقافة العربية،دمشق سوريا.

ألان تورين،1998 م، نقد الحداثة: ولادة الذات، ترجمة صياح الجهيم، ق2، منشورات وزارة الثقافة العربية دمشق– سوريا–.

بول فاليري، 2013 م ،في الحداثة الأدبية، ترجمة: غيثة بلحاج، ط1 دار توبقال للنشر والتوزيع، المغرب.

جان بودريار، 2006م ،الفكر الجذري أطروحة موت الواقع، ترجمة منير الحجوجي وأحمد القصوار، ط1، دار توبقال للنشر والتوزيع، المغرب .

جان بودريار، 2008 ،المصطنع و الاصطناع، ترجمة جوزيف عبد الله ، ط1 ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنانم.

جان بودريار، 2013،التبادل المستحيل، ترجمة جلال بدلة ، ط1،دار معابر للنشر والتوزيع ، سوريا.

جان بودريار،1995، المجتمع الاستهلاكي، دراسة في أساطير النظام الاستهلاكي و تراكيبه، تعريب خليل احمد خليل ط1،دار الفكر اللبناني.

جي ديبور، 2000 م، مجتمع الاستعراض، ترجمة أحمد حسان، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة.

جيل ليبوفيتسكي، 2012 م، شاشة العالم، ترجمة راوية صادق، ط1، المركز القومي للترجمة ، مصر.

خليل أحمد خليل، 1996 م، علم الاجتماع وفلسفة الخيال، ط1، دار الفكر اللبناني– بيروت.

زيجمونت بومان، 2016 م ،الحرية، ترجمة فريا ل حسن خليفة، مكتبة الفكر الجديد.

زيجمونت بومان، 2017 م، الأزمنة السائلة: العيش في زمن اللا يقين، ترجمة حجاج أبو جبر، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

زيغمونت بومان ،2016 م ،الحداثة السائلة، ترجمة سعد البازغي وبثينة الإبراهيمي،ط1، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، منشورات دار الكلمة.

عبد الرزاق الداوي، 2004 م، حوار الفلسفة والعلم والأخلاق في مطلع الألفية الثالثة، ط1، شركة المدارس للنشر والتوزيع، المغرب.

عبد الوهاب ألمسيري ،2006م ،دراسات معرفية في الحداثة الغربية ، ط1 ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة.

عبد الوهاب ألمسيري، الفردوس الأرضي دراسات و انطباعات عن الحضارة الأمريكية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت– لبنان.

علاء طاهر، نهايات الفضاء الفلسفي: الفلسفة الغربية بين اللحظة الآنية والمستقبل، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة

فتحي التريكي، 2009 م ، فلسفة الحياة اليومية، ط1، دار المتوسطة للنشر، تونس.

فريدريتش نيتشه، 2003م، ما وراء الخير والشر، ترجمة جزيلا فالور حجار، دار الفارابي للنشر والتوزيع، بيروت.
كريس هوركس، روزان جيفتيك، 2005 م، أقدم لك بودريار، ترجمة حمدي الجابري، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
محمد علي فرح ، 2014 م ، الإعلام وضبط المجتمع، ط1، مركز الإنماء للبحوث والدراسات، بيروت–لبنان.
ميشال دو سارتو، 2011م، ابتكار الحياة اليومية : فنون الأداء العلمي ،ترجمة محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف ، الجزائر.
نعوم تشومسكي، 2004 م ،الدول المارقة– استخدام القوة في الشؤون العالمية–، تعريب أسامة اسبر، ط1، مكتبة العبيكان.
نورة بوحناش، 2013 م ،الأخلاق والحداثة، دار إفريقيا الشرق– المغرب.
هربارت ماركيوز،1988 م ،الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج الطرابيشي،ط3، منشورات دار الآداب– بيروت.
هربارت ماركيوز،2011م، فلسفة النفي، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، ط1،مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع القاهرة.
هنري برجسون، 1971 م، منبعا الأخلاق والدين، ترجمة الدكتور سامي الدروبي، وعبد الله عبد الدائم، منشورات المصرية للتآليف والنشر.
André comte- Sponville, 2001, Dictionnaire philosophique, 1 er éd, presses universitaires de France.
Edgar Morin et Tariq Ramadan, 2014، l'éthique aujourd'hui entre la théorie et la pratique, édition el Borhane.
Gilbert Simondon, 1989 ،Du monde d'existence des objets techniques, éditions Aubier.
Herbert Marcuse, 1963, Eros et Civilisation contribution à Freud, édition Minuit.
Herbert Marcuse، 1970, culture et société, les éditions de Minuit.
Jean Baudrillard, 1970، société de consommation : ses mythes, ses structures, édition Denoël, paris.
Jean Baudrillard, 1972, pour une critique de l'économie politique du signe, Gallimard.
Jean Baudrillard, 1983، les stratégies Fatales, (édition Grasset et fasquelle , paris.
Jean Baudrillard, 1986، le système des objets, édition Gallimard, Paris.
Jean Baudrillard, 2001 ،D'un Fragment l'autre- entretiens avec François Yvonne, édition Albin Michel, S .A.
Jean Gray, Daniel carrière, 1975, les misères de l'abondance-sept question sur la croissance-, éditions entente, France.

Michel Bellefleur, 2012, le loisir contemporaine- essai de la philosophie sociale, presses universitaire de Québec.
Michel Foucault, 1966, les mots et les choses, éditions Gallimard.
Michel Onfray, 2011 ،la construction du Surhomme, éditions Grasset et Fasquelle,.
Robert Misarhi, 2011 , le bonheur : essai sur la joie, édition Cicile Défaut.